من فرح النفس ما يقتل

ضربت لسيف الدولة خيمة عظيمة فهبت ريح شديدة فسقطت فقال:

[المتقارب]

أَيَقْدَحُ فِي الْخَيْمَةِ الْعُذَّلُ
وَتَشْمَلُ مَنْ دَهْرَهَا يَشْمَلُ؟(١)
وَتَعْلُو الَّذِي زُحَلٌ تَحْتَهُ
مُحَالٌ لَعَمْرُكَ مَا تُسْأَلُ(٢)
فَلِمْ لَا تُلُومُ الَّذِي لَامَهَا
وَمَا فَصُّ خَاتَمِهِ يَذْبُلُ(٣)
تَضِيقُ بِشَخْصِكَ أَرْجَاؤُهَا
وَيَرْكُضُ فِي الْوَاحِدِ الْجَحْفَلُ(٤)

---

(١) أيقدح: أيذمّ ويعيب. العذّل، الواحد عذول: اللائمون. يشمل: يُحيط. يروى «أينفع» بدلاً من «أيقدح». يبدأ الشاعر قصيدته المدحية مستنكراً أقاويل اللائمين وهم ينعون على الخيمة سقوطها، وقد عصفت بها رياح عاتية، وكان في داخلها سيف الدولة، فإذا بالشاعر يجد سبباً وجيهاً حملها على السقوط، ففي داخلها من تشمل معارفه الدهر؛ إنها المهابة والخشية ممّن تشتمل عليه.

(٢) زحل: اسم نجم. يستغرب الشاعر أن الخيمة تعلو من هو أسمى وأعلى في المقام وأشد ذكاءً وشجاعة وقوّة من زحل ذلك النجم الذي يتربّع عرش السماء، ذلك مستحيل أن يحصل.

(٣) يذبل: جبل في جزيرة العرب. يستغرب موقف الخيمة السلبي من أنها لم تلم من لامها على ما حصل لها؛ إنها المهابة والخشية لاشتمالها على عظيم، وكان بإمكانها أن تُمثل مثلاً صعب التحقيق، فمن غير المنطقي أن يكون فص خاتمه جبلاً عظيماً، فالأوجب ألّا تشمل الخيمة الأمير، ولم يحصل ذلك، وهذا طبيعي.

(٤) الأرجاء: الجهات والنواحي. الجحفل: الجيش اللّجب العرمرم. يُخاطب الشاعر ممدوحه أن الخيمة كانت من الاتساع بمكان عظيم، بحيث تشتمل على جيش عظيم العدد، ولكنها الرهبة والهيبة حملتها على ما كان منها، ولقد خرّت خاشعة إجلالاً وتعظيماً.

وَتَـقْـصُـرُ مَـا كُـنْـتَ فـي جَـوْفِـهَـا
وَتُـرْكَـزُ فِـيـهَـا الْـقَـنَـا الـذُّبَّـلُ (١)
وَكَـيْـفَ تَـقُـومُ عَـلَـى رَاحَـةٍ
كَـأَنَّ الْـبِـحَـارَ لَـهَـا أُنْـمُـلُ (٢)
فَـلَـيْـتَ وَقَـارَكَ فَـرَّقْـتَـهُ
وَحَـمَّـلْـتَ أَرْضَـكَ مَـا تَـحْـمِـلُ (٣)
فَـصَـارَ الْأَنَـامُ بِـهِ سَـادَةً
وَسُـدْتَـهُـمُ بِـالَّـذِي يَـفْـضُـلُ (٤)
رَأَتْ لَـوْنَ نُـورِكَ فـي لَـوْنِـهَـا
كَـلَـوْنِ الْـغَـزَالَـةِ لَا يُـغْـسَـلُ (٥)
وَأَنَّ لَـهَـا شَـرَفـاً بَـاذِخـاً
وَأَنَّ الْـخِـيَـامَ بِـهَـا تَـخْـجَـلُ (٦)

---

(١) القنا الذبّل: الرماح اللينة لطولها. يُردف الشاعر حديثه أن تلك الخيمة مرتفعة بحيث تركّز فيها الرماح الطويلة، ومع ذلك كان منها ما كان فلم تقدر على الصمود، والأمير في داخلها، وقلبها ملأته المهابة من عالٍ في سماء المجد، فتهاوت خشية وإجلالاً لشخصه العظيم.

(٢) الراحة: راحة اليد. الأنامل، الواحدة أنملة: أطراف الأصابع. يستغرب الشاعر أن تبقى الخيمة صامدة ولا تنهار، إنها تشتمل على بحر من الجود، فيداه تنثر الخير على العافين والموالي والأصحاب. فكأن البحار لها أنامل تُرفدها وتُساعدها ليعمّ عطاؤها كلّ مكان.

(٣) و (٤) يُخاطب الشاعر ممدوحه متمنياً عليه أن يُوزّع وقاره وهيبته بين الناس وسائر الكون، ممَّا يسمح للخيمة الحصول على حصتها فتتماسك وتثبت في مكانها فلا تنهار على من فيها، كما أن البشر يُعينهم ذلك فيتسيّدون الناس، ورغم ذلك فسوف يبقى من الوقار والهيبة الشيء الكثير يُؤهّله ليكون سيد الناس جميعاً.

(٥) الغزالة: الشمس لحظة شروقها. يُخاطب الشاعر ممدوحه، منوّهاً بنور طلعته البهية، فقد رأت الخيمة نور وجهه مشرقاً وضّاءً فاستمدّت منه ما جعل لون لباسها أبيض كلون الغزالة في أوّل إشراقها.

(٦) الشرف الباذخ: العالي. لقد تاهت وزهت الخيمة على سائر بني جنسها إذ اشتملت =

فَــلَا تُــنْــكِــرَنَّ لَــهَــا صَــرْعَــةً
فَــمِــنْ فَــرَحِ الــنَّــفْــسِ مَــا يَــقْــتُــلُ (١)
وَلَــوْ بُــلِّــغَ الــنَّــاسُ مَــا بُــلِّــغَــتْ
لَــخَــانَــتْــهُــمُ حَــوْلَــكَ الْأَرْجُــلُ (٢)
وَلَــمَّــا أَمَــرْتَ بِــتَــطْــنِــيــبِــهَــا
أُشِــيــعَ بِــأَنَّــكَ لَا تَــرْحَــلُ (٣)
فَــمَــا ٱعْــتَــمَــدَ الــلَّــهُ تَــقْــوِيــضَــهَــا
وَلَــكِــنْ أَشَــارَ بِــمَــا تَــفْــعَــلُ (٤)
وَعَــرَّفَ أَنَّــكَ مِــنْ هَــمِّــهِ
وَأَنَّــكَ فِــي نَــصْــرِهِ تَــرْفُــلُ (٥)

= على الممدوح، فكان لها الشرف السنيّ، ممَّا أخجل أخواتها بما نالها من المكانة السامية.

(١) ورد البيت في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١٧١. أنكر: استغرب. يُخاطب الشاعر ممدوحه طالباً منه أن ما حصل أمر طبيعيّ، لذا ألّا يستغرب ما حصل: إنه ناتج عن حبّ دفين تُحسّ به الخيمة نحو الأمير، لذا فقد انهارت لروعة المفاجأة فإذا بفرحها يبلغ أقصى مداه، فكان طبيعياً أن تُصرع.

(٢) يُردف الشاعر حديثه لو أن هذه الحالة قد وقعت للناس بأن فاجأهم الممدوح بزيارة لما استطاعت أرجلهم أن تحملهم لهول المفاجأة ولقوّة شخصية الممدوح وهيبته، لذا فالأمر طبيعي أن تخون الخيمة أطنابها وأعمدتها فتنهار خائرة.

(٣) و (٤) ورد البيت التالي في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١٧١. يروى «وما» بدلاً من «فما». التطنيب: شدّ الأطناب. التقويض: الهدم. يسرد الشاعر كيف حصل من الأمر ما حصل، فقد أمر الأمير بإقامة معسكره فنُصبت الخيمة، ولكن انتشرت إشاعة مفادها أن الأمير ينوي البقاء والتوقّف عن الغزو، فكانت إرادة اللّه سبحانه وتعالى بأن يُتابع الأمير مسلسل بطولاته العسكرية ويقضي على أعداء اللّه عزّ وجلّ وأعدائه، فكان أن أوحى للخيمة أن اسقطي فسقطت لأمر قدّره اللّه سبحانه وتعالى.

(٥) همّه: عنايته. ترفل: تنعم وتتبختر، كان القصد الإلهيّ ممَّا حدث للممدوح أن اللّه تعالى يُحبّ للأمير العزّة والفخر، فعزّه وفخره بمقاتلة أعداء الخالق سبحانه وتعالى، ولقد أعانه بنصره وعنايته الربانية ليتمّ على يديه نصر اللّه تعالى دينه وأمته؛ فكان أن انهارت الخيمة لبشارة على ما سيحدث للأمير بإرادة خالقه سبحانه وتعالى.

فَمَا الْعَانِدُونَ وَمَا أَثَّلُوا
وَمَا الْحَاسِدُونَ وَمَا قَوَّلُوا(١)
هُمُ يَطْلُبُونَ فَمَنْ أَدْرَكُوا
وَهُمْ يَكْذِبُونَ فَمَنْ يَقْبَلُ(٢)
وَهُمْ يَتَمَنَّوْنَ مَا يَشْتَهُونَ
وَمِنْ دُونِهِ جَدُّكَ الْمُقْبِلُ(٣)
وَمَا لُمُومَةٌ زَرَدٌ ثَوْبُهَا
وَلٰكِنَّهُ بِالْقَنَا مُخْمَلُ(٤)
يُفَاجِئُ جَيْشاً بِهَا حَيْنُهُ
وَيُنْذِرُ جَيْشاً بِهَا الْقَسْطَلُ(٥)

(١) و (٢) العاندون: الجائرون عن الحقّ مع علمهم به. أثلوا: أصّلوا. يروى «أقلوا» بدلاً من «أثّلوا». لقد كان لحادث سقوط الخيمة مجال للأقاويل، فإذا بأعداء الأمير وحاسديه يتقوّلون الأقاويل ويختلقون الأكاذيب ليُستشفّ منها باب تشاؤم يحمل الأمير على التشاؤم والخوف من طالع سوء؛ إنهم يُخفون ما بأنفسهم من خبث النوايا والحسد المبطّن بالكراهية فيطلبون للأمير الخسران والهزيمة، ولن يحصلوا على ما يُريدون، وأقاويلهم وتلفيقهم تضيع هباءً لعدم تصديق الناس بما يزعمون؛ وعليه فلن يُؤمن أحد بصدقهم في ما لو صدقوا فكيف وهم كاذبون؟

(٣) الجَدّ، بفتح الجيم الحظ. موقفان متعارضان: موقف الحاسدين والحاقدين، إنهم يتمنّون الخسران المبين والهزائم الشنعاء للأمير، وحظّه الموفّق الميمون يكيد لهم في نحرهم ويُرفده بحسن مقاديره فيردّ سعيهم ومكرهم في نحورهم.

(٤) و (٥) ورد البيتان في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١٧٠. الملمومة: الفرقة من الجيش المجتمعة. الزرد: حلق الدروع المصنوعة من الحديد. القنا: الرماح. الحين: الهلاك. القسطل: الغبار في المعركة. يرى الشاعر أن الردّ على أمثال هؤلاء يكون عملاً عسكرياً سريعاً لإسكاتهم وتكذيب مدعاهم، فثمّة ملمومة يقودها الأمير، وقد استعدّت استعداداً كاملاً فارتدى أفرادها دروعاً حديدية وتسلحوا بالرماح المخملية، يُفاجئون جيوش أعدائهم، فيزرعون الموت في صفوفهم ليلاً وفي الجبال، وينحدرون إلى السهول مع الفجر فيُثيرون الغبار ويتعالى ضجيجهم فيرتعب آخرون في حال رؤيتهم غباراً يتصاعد من بعيد منذراً بالويل والثبور.

جَعَلْتُكَ فِي الْقَلْبِ لِي عُدَّةً
لأَنَّكَ فِي الْيَدِ لَا تُجْعَلُ(١)
لَقَدْ رَفَعَ اللَّهُ مِنْ دَوْلَةٍ
لَهَا مِنْكَ يَا سَيْفَهَا مُنْصُلُ(٢)
فَإِنْ طُبِعَتْ قَبْلَكَ الْمُرْهَفَاتُ
فَإِنَّكَ مِنْ قَبْلِهَا الْمِقْصَلُ(٣)
وَإِنْ جَادَ قَبْلَكَ قَوْمٌ مَضَوْا
فَإِنَّكَ فِي الْكَرَمِ الْأَوَّلُ(٤)
وَكَيْفَ تُقَصِّرُ عَنْ غَايَةٍ
وَأُمُّكَ مِنْ لَيْثِهَا مُشْبِلُ؟(٥)

---

(١) و (٢) ورد البيت في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ٩٣. يروى «بالقلب» بدلاً من «في القلب»، ويروى «باليد» بدلاً من «في اليد». يُخاطب الشاعر ممدوحه، فقد أعَدّه في الملمات والشدائد ذُخراً معيناً، فقد آمن به قلبه، فاحتل فيه مكانة عالية لا يُزاحمه فيها أحد، ومن إجلاله لممدوحه دلّ على أنه لا يُجعل باليد، لأن ما يُجعل باليد مادي محتقر، والأمير رمز وفكرة تستقرّ في القلوب لحاجة الأمة إليها أفراداً وجماعات، فكان للدولة العباسية المنصل والسيف الحامي لكيانها يدفع عنها كيد الأعداء ويكسر شوكتهم ويقطع دابرهم.

(٣) و (٤) طبع: صُنع، المرهفات، الواحد مرهف: السيف الرقيق الحدّ. المقصل: القاطع. يُخاطب الشاعر ممدوحه، لقد كانت صناعة السيوف قديمة قدم عداء البشر لبعضهم البعض، ولكن الأمير يختلف عن سائر السيوف بأنه إرادة فاعلة، لذا فهو أكثر السيوف أثراً في المعارك فعلى يديه تتقرّر مصائر وبه تقوم جيوش وتقعد، وبلا ريب فقد كان لكرام القدماء من الأمة الدور العظيم في تثبيت أركان الدولة، فقد قامت على تضحياتهم وبطولاتهم، ولكن الزمان تبدّل وتغيّر، فندرت البطولات وقلّ أمثال الأجداد ثم كانت الأمة على موعد مع الأمير، فإذا به يزيد على الماضين في الكرامة والأمجاد، وهذا ما يجعله ضرورة للدولة.

(٥) الليث: من أسماء الأسد، لبوة مشبل: لديها أشبال صغار. الشبل: ولد الأسد. يمدح الشاعر والد سيف الدولة ووالدته؛ لقد اقتدى بأبيه فالشبل أسد بطبيعة الحال، =

وَقَــدْ وَلَــدَتْــكَ فَــقَــالَ الْــوَرَى
أَلَــمْ تَــكُــنِ الــشَّــمْــسُ لَا تُــنْــجَــلُ[١]
فَــتَــبًّــا لِــدِيــنٍ عَــبِــيــدِ الــنُّــجُــومِ
وَمَــنْ يَــدَّعِــي أَنَّــهَــا تَــعْــقِــلُ[٢]
وَقَــدْ عَــرَفَــتْــكَ فَــمَــا بَــالُــهَــا
تَــرَاكَ تَــرَاهَــا وَلَا تَــنْــزِلُ[٣]
وَلَــوْ بِــتُّــمَــا عِــنْــدَ قَــدْرَيْــكُــمَــا
لَــبِــتَّ وَأَعْــلَاكُــمَــا الْأَسْــفَــلُ[٤]
أَنَــلْــتَ عِــبَــادَكَ مَــا أَمَّــلُــوا
أَنَــالَــكَ رَبُّــكَ مَــا تَــأْمُــلُ[٥]

= واللبوة لا تلد إلّا أسداً، إنه كريم الوالدين، ولذا فلن يُقصّر بإدراك المعالي كرامة، شجاعة، كرماً وجوداً، أصالة نسب، رفعة، نبلاً.

(١) الورى: البشر. ينوّه الشاعر بمنزلة الأمير الرفيعة، لقد ولدته امرأة كسائر النساء، والفرق بين الولادات، فمعظمهنّ ولدن أولاداً ليكونوا على هامش الحياة، أما هذه المرأة العظيمة، فقد ولدت شمساً تنشر ظلّها وضياءها على الكون عطاءً وكرامة وشجاعة ونبلاً، وهي شمس أبدية دائمة الإشراق.

(٢) و (٣) التبّ: الخسران المبين. يدعو الشاعر على أهل الشرك من عبدة النجوم الذين يُؤمنون بها أنها تسيّر الكون فيعبدونها من دون اللّه عزّ وجلّ فبشراهم بالهلاك والخسران المبين في الدنيا والآخرة، ودون شكّ فإنها تفتقد إلى العقل والتمييز، وتلك مشكلة من يعبدها، ولو كانت تعقل لكانت عرفت الأمير ونزلت إلى الأرض لتكون عوناً وعضداً، لذا فإن المدد الربّانيّ خير مدد.

(٤) يُفضل الشاعر ممدوحه على النجوم، فكلّ منها على قدر يشغله، فإذا بالنجوم وهي تحتلّ السماء، فالأولى بها أن تستقرّ في الأرض ويحتلّ الأمير مكانها لعلوّ قدره ورِفعة مكانته.

(٥) يُخاطب الشاعر الأمير ويدعو له؛ فقد غمر جوده عبيده وأبناء إمارته بالكثير من كرمه ولطفه وحبّه لهم، ويتمنّى الشاعر للأمير أن يُجازيه ربّه خير جزاء يأمله ويرجوه يوم لا يُرجى سواه.